طلعنا عالحريّة

حرية ، كرامة، مواطنة

العدد 89
2019 / 11 / 4
مجلة نصف شهرية، سياسية، ثقافية، مستقلة

”متمسكون بلبنان“ عمل للفنان فارس خاشوق

- لبنان.. وجع الخاصرة
- سوريا ولبنان.. وسؤال العولمة
- ملف حول استعصاء القضية الكردية
- المرأة ... زهر الربيع العربي وعصب ثوراته

لبنان.. وجع الخاصرة

"انتهى الدرس يا غبي!"

افتتاحية بقلم أسامة نصّار

من بين كل الحراكات الشعبية في العالم، ومنها ما يحدث في دول عربية، يختلف تعاطي السوريين وشعورهم تجاه الحراك اللبناني.

لا شكّ أن كل حراكات التحرر في العالم تعنينا، وتعني مناشدي الحرية والكرامة من السوريين، لكننا حكماً مرتبطون ارتباطاً عضوياً مع لبنان والحراك الجاري فيه.

وبعيداً عن الإغراق في إحياء روابط متحفية، أو اختراعها دون معنى، يحمل السوريون شعوراً خاصّاً تجاه لبنان واللبنانيين. نحاول أن نتتبع كيف ارتسمت صورة البلد الجار في ضمير السوريين، فنجد أنه عند قسم معتبر منا طالما كان لبنان وجعَ الخاصرة.. نتذكر ولوغ النظام السوري في الحرب الأهلية، ثم وجود جيشه في البلد مع (حزمة) الانتهاكات المرافقة التي اشتهر بها، ثم تدخل النظام بما يخدم مصالحه ومصالح وكلاء محليين من أسوأ اللبنانيين وطبعاً بما يغاير مصالح الناس في البلدين. البسطاء منا يتذكرون معبر المصنع وذلّ تهريب المواد من أطعمة وألبسة ودواء من الروشة إلى سرغايا ومضايا أو من الشمال اللبناني إلى القصير في ريف حمص.

تنقذنا ثورة لبنان نحن السوريين من تحوّل آخر لعلاقتنا مع لبنان؛ تحمينا من وسم لبنان أو اختزاله بولوغ حزب الله اللبناني في الدم السوري، وبعنصرية وخطاب كراهية ضدّ اللاجئين السوريين في لبنان.

لا فائدة من المقارنات المبنية على فكرة أن نظامنا مختلف، وأنظمة الآخرين أقل سوءاً وعنفاً. ستكون غاية هذه المقارنات هي التبرؤ، والابتعاد عن نقد الذات: النظام السوري متوحّش وباقي الأنظمة أقل وحشيّة. المشكلة ليست عندنا؛ لقد قمنا بكل ما علينا؛ ثرنا وتظاهرنا وملأنا الساحات كما فعل السودانيون ويفعل اللبنانيون والعراقيون. ثم دخل السلاح كما في ليبيا واليمن.. لكن نظامنا وإيران وروسيا وعمالة الخليج والتآمر الدولي و... كلها حالت دون التغيير كما الآخرين.

هذه خلاصة مقارنة قسم معتبر من السوريين مع كل الحراكات الشعبية في البلدان الأخرى.

سيعجب الطاغية أن يقال عنه إنه الأعنف والأفظع وإن التاريخ لم يشهد مثيلاً لوحشيته وبطشه. هذه (الفرادة) تفيده وتغذي غروره وعنجهيته، كما أن وصفه بالعنف المفرط سيعمق الخوف.. أهم أعمدة حكمه.

هدفَ النظام السوري مع تواطؤ -أو دعم- من طغاة العالم إلى تأديب الشعوب المتطلعة لنيل كرامتها وحقوقها، عبر الإمعان في قمع الثورة السورية، لتأتي الموجة الثانية من الربيع العربي، من السودان والجزائر والعراق ولبنان وغيرها أيضاً، لتقول لهؤلاء إننا باقون وسنثور وتقمعوننا ثم نثور وتقمعوننا ثم نثور.. ثم نثور.. لتقول لهم إننا نفهم الدرس ولكن لا نريد تطبيقه؛ فالعصى لا تربينا وإن استحالت رصاصاً وصواريخ وبراميل متفجرة وغازات سامّة.. لتقول لهم: «انتهى الدرس يا غبي»!

طلعنا عالحريّة
مجلة نصف شهرية تعنى بشؤون الثورة

www.freedomraise.net
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

freedomraise@gmail.com

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت
facebook.com/freeraise
twitter.com/freedomraise
info@freedomraise.net

تنويه:
ترحب المجلّة بمشاركات القراء والزملاء الصحافيين والإعلاميين، علماً أن العمل الآن تطوعي ولا توجد مخصصات أو مكافآت مالية.

سوريا ولبنان.. وسؤال العولمة

سميح الصفدي

جاءت الانتفاضة الأخيرة لتعرفني أكثر على لبنان واللبنانيين، ومثل كل انتفاضات الربيع العربي التي نكتشف فيها أننا لا نعرف إلا القليل عن شعوبنا ومعاناتها وثقافاتها، بدأت مرغماً بإعادة النظر بمسبقاتي؛ وصرت أستلطفهم أكثر فأكثر، كسرت بسرعة حواجزي النفسية تجاه لكناتهم الأجنبية، وأحببت مسبّاتهم الفجّة لزعماء الطوائف، وما عدت أرى مبالغة تذكر في قصر لباسهم، والأهم: زالت بالتدريج تلك اللطخة الطاغية التي احتلتها كراهية السوريين في المشهد اللبناني العام لنرى جماهيراً طيبة وعفوية ومحبة تعيد الأمل بإنسانية الإنسان.

لأعترف بداية أنني كنت لا أحب اللبنانيين! هكذا بخفة وبحكم قيمة تعميمي يشابه غالبية أحكامنا، مثل كثيرين غيري كنا ننفر من زيفهم واستلابهم الفاقع للغرب، عنصريتهم واستعلائهم وطوائفيتهم واستلاباتهم الطبقية.. كنا نكره كذلك دونيتنا كسوريين أمامهم، فقراء وأغنياء، كتاباً ومثقفين ونخباً فنية، لم تستهوني يوماً غزليات المثقفين السوريين لا بسمير قصير ولا بعائلة تويني ولا بغيرهم، ورغم أنني أعترف بأنني لا أعرف الرجل الشهيد (قصير) ولا قرأت له، إلا أن استلابات النخب السورية ومثقفي العلاقات العامة، ببغائيتهم ودونيتهم الطفلية أمام اللبنانيين قد وقفت حائلاً بيني وبين فكر الرجل، وبين عديدين من مثقفي وكتاب لبنان.

القضية الآن انتقلت إلى مستوى آخر، اللبنانيون اليوم ينالون الدعم والحب الذي يستحقون من الجميع، إلا أن الحلم بالتغيير وبدولة مدنية حديثة يبقى على كفّ عفريت، والعفريت الذي يتربص بالمشهد العام قد يقلب الطاولة على الجميع في لحظة الحقيقة، وتلك اللحظة تقررها للأسف معادلات دولية قذرة كانت قد أودت بالسوريين من قبل. ومحور الممانعة من طهران إلى الشام إلى ذئب الضاحية جاهز للانقضاض على أحلام الناس، وجاهز لتقطيع أوصالها عند إعطائه الضوء الأخضر لذلك. أما الضوء الأخضر فهو رهن اتفاقات وتوافقات دولية من واشنطن مروراً بتل أبيب إلى موسكو.

وكما شهدنا نحن السوريين ذلك التكالب اللاأخلاقي على ثورتنا المغدورة، فإن اليد تبقى على القلب في أن تشهد الثورة اللبنانية ذات التكالب وذات الخيانات.

لا تقاس الأمور بتأييد الثورات في لحظات ألَقِها وقوتها. إنما تقاس بالقدرة على الوقوف إلى جانبها عند الألم والتشرذم والمعاناة والضعف، عندما تفرقها القذيفة والرصاصة. ولقد اكتشفنا سابقاً أن أخلاقياتنا نحن العربان مثل أخلاقيات العالم المعاصر؛ تحب القوي وتكره الضعيف، وأنها من الممكن أن تنقلب على اللبنانيين في اللحظة التي تدوسهم بها أبواط العسكر أو يمزق أجسادهم الرصاص الحي، أو تهدم بيوتهم فوق رؤوسهم بالبراميل المتفجرة.

ومهما بدا كلامنا متشائماً إلا أن هذه الهيبة التي نستشعرها الآن أمام مشهد الجمهور اللبناني الثائر.. كل هذا الجمال والوقار والحرية وهذه السلطة الجماهيرية الواثقة.. تستطيع عصابة مسلحة منفلتة من عقال العقل والعاطفة كالعصابات الأسدية والإيرانية وحزب الله أن تمرغها بالتراب.. أن تحولها لفلول ومجموعات هاربة.. وأن تسمح لـ "مثقفين" قليلي الوجدان والضمير بالتشدق في لا شرعيتها!..

أكثر ما يشغل البال في وضعنا هذا هو الفارق بين الحالتين في سوريا ولبنان، والسؤال الملح حول جدوى الثورات وإمكانات انتصارها المناقضة للإرادات الدولية والتي لا تريد لنا الخير ولا الديموقراطية. هل سيكون هناك فارق في النتيجة بين فعل وآخر؟ هل السلمية أجدى فعلاً من السلاح؟ هل المظهر الحداثي المتمدن أجدى من المظهر الماضوي المفوّت الذي طغى في سوريا؟ هل سيشكل حضور المرأة ومظهرها المتحرر فارقاً يذكر في مواقف العالم والدول؟ هل سيكون من الصعب أسلمة الثورة أو تطييفها؟ وهل سيكون هناك فارق في المآلات بين طرق أو خيارات متعددة ومختلفة؟ هل ستعري التجربة اللبنانية أخطاء المعارضة السورية أكثر مما تعرت سابقاً.. هل ستثبت أنه كان بالإمكان أكثر مما كان؟

السؤال يعيد إلى الأذهان مرحلة يبدو أن البشرية طوتها إلى حين؛ تلك المرحلة القصيرة التي بدا فيها أن العالم يتوحد ويتشابه ويتقارب، مرحلة أوهام العولمة وأحلامها.. كذلك المخاوف منها وارتيابها، العولمة ذلك المفهوم الذي يبدو أنه بات خارج التداول اليوم بعد أن كان سؤال الساعة والدقيقة. وبعد أن كان الرهاب والهاجس لدى طيف واسع من المثقفين العرب هو خطر الذوبان في العولمة، يبدو أن العكس هو الذي حدث؛ فلقد بات واضحاً اليوم أن المراكز العالمية الإمبريالية لا تريد إلا لفظنا من العولمة، يبدو أنها تريد حصر العولمة بالاقتصاد ومنعها قسرياً عن السياسة والثقافة، وكما نوه الراحل جورج طرابيشي بات من الجلي اليوم أن الدول الكبرى ضداً على ثقافة العولمة تتمترس وراء عصبياتها القومية من أمريكا إلى أوروبا وانجلترا إلى روسيا والصين واليابان وباقي القوى العالمية الصاعدة. وبالطبع لا نستثني القوى الإقليمية الوازنة تركيا وإيران وإسرائيل.

هذا التمترس وراء عصبيات ما قبل العولمة هو الذي صاغ مواقف الدول من ثورة السوريين الذين بنوا آمالهم على "الأخلاق" العالمية، لم يكن يتصور حتى أشد السوريين تشاؤماً آنذاك أن يسمح العالم بارتكاب المجازر وتهديم المدن وقتل مئات الألوف وتهجير الملايين وموت المئات في البحار، بل وحتى استخدام الأسلحة الكيماوية أمام أنظار العالم الذي بات قرية صغيرة، في عالم الصوت والصورة والبث الحي والمباشر .

ولئن كان طرحنا هذا يبدو عدمياً ويغيب عنه تقدير الفروقات في الفعل والإرادة ونتائجهما، إلا إنه لمن المرجح ألاّ تكون هناك تأثيرات تذكر لتلك الفروقات بين الثورتين السورية واللبنانية (هذا في حال استمرار الأخيرة وتصاعدها)، فقدرية إرادات الدول الكبرى والقوى الإقليمية تبدو عاملاً حاسماً في تقرير مصائرنا. كما أن تعقيدات الحالة اللبنانية والمحاصصة الطائفية مرشحة، فيما لو استمرت التظاهرات وتصاعدت، لاجتذاب تدخل دولي واسع النطاق على غرار سوريا وربما أكثر، أقله قد تبدأ الأمور بافتعال حرب بين إسرائيل و "المقاومة" تبيح لهم كل شيء وتبعثر حراك الشارع تحت غبار الحرب دون أية تغييرات تذكر.

وإذا يبدو اليوم أكثر من أي وقت مضى أن مصائر الشعوب المستباحة والمقموعة مسألة دولية أكثر بكثير من كونها محلية؛ فإن العالم ككل ومراكزه على الأخص بحاجة إلى انعطافة أخلاقية كبرى قد نكون جزءاً منها أو وقوداً لها، إلا أنها برسم العالم المتقدم حصراً والذي يبدو أنه "قدرياً" أيضاً لا بد أن يعي عاجلاً لا آجلاً أن خيارات الإنسانية جمعاء على مفترق طرق.. إما التقدم والانفتاح والعولمة أو الهمجية والتعصب والعدمية.

أكراد سوريا بين شقي الرحى..

خيانة أمريكية وضغوط روسية على وقع التهديدات التركية

كمال شيخو

باتت الحالة السورية معقّدة، ولم يعد بالإمكان التكهن بمجريات الأحداث، لسبب رئيسي مردّه تقاطع مصالح اللاعبين الدوليين والإقليميين وتعارضها بنفس الوقت على الأرض السورية. لكن يمكن القول بأن التفوق النوعي -للجندي الأمريكي- اليوم يجعل من الإدارة الأمريكية الأكثر قدرةً على التحكم في سير الأحداث والضغط على باقي الأطراف المتناحرة.

القيادة الكردية في شمال شرق سوريا والذين أزعجهم قرار واشنطن بالانسحاب من بلدهم؛ طلبت تدخل روسيا وحليفتها دمشق وإرسال قوات على وجه السرعة لحماية الحدود من الهجمات التركية، واستجابت موسكو للدعوات الكردية. وفي حديثه إلى مجلة طلّعنا عالحّرية، ولدى سؤاله عن بنود الاتفاق، قال المسؤول الكردي الدار خليل، أحد أبرز مهندسي الإدارة الذاتية التي تدير مناطق شرق الفرات: "إن اتفاقاً عسكرياً مبدئياً مع دمشق سيقتصر على انتشار الجيش على طول الحدود"، لكن الجانبين -الإدارة وحكومة النظام السوري- يتباحثان حول باقي القضايا السياسية والإدارية والعسكرية، وأوضح بأن الاتفاق يقضي بدخول القوات الحكومية لحماية المناطق الحدودية من بلدة منبج إلى ديريك في أقصى شمال شرق البلاد، واعتبر بأن: "حماية الحدود هو واجب أصيل يقع على كاهل الجيش السوري".

وأبرمت القيادة الكردية اتفاقاً مع الحكومة السورية في 13 من شهر تشرين الأول - أكتوبر الماضي برعاية روسية، يجيز انتشار قوات حرس الحدود على طول الشريط الحدودي بعد انسحابها منه نهاية 2012، إثر قرار الولايات المتحدة سحب جنودها من المنطقة. وكان ضوء أخضر أمريكي للعملية التركية التي شنتها أنقرة في 9 من شهر تشرين الأول - أكتوبر الفائت.

وعلى الرغم من انتشار القوات النظامية الموالية للأسد والشرطة العسكرية الروسية في معظم مدن شرق الفرات، يؤكد مسؤولو الإدارة الذاتية بأن هياكل الحكم المحلية ستتابع عملها، كما يقول القيادي الكردي الدار خليل: "المدن الكردية وجميع المناطق التي تم تحريرها على أيدي (قوات سوريا الديمقراطية) ستديرها الإدارة الذاتية. لن يتغير شيء في شكل الإدارات وعناصر الأمن بالمدن لأن الاتفاق يقتصر على الحدود فقط".

وإذا أُبرم اتفاق شامل بين الإدارة الذاتية وحكومة النظام السوري فإنه سيوحِّد مجدداً أكبر منطقتين في البلد، وسيترك منطقة واحدة في شمال غرب البلاد في أيدي جهات إسلامية وفصائل المعارضة المسلّحة المناهضة للأسد، ولفت الدار خليل: "مذكرة التفاهم الموقعة مع دمشق خطوة لعقد اتفاق نهائي مستقبلاً".

وعلى الرغم من أن الحكم الذاتي الذي يريده الأكراد يتعارض بشكل واضح مع ما تريده دمشق، فقد تجنبت القوات الكردية إلى حد بعيد الصراع المباشر مع القوات الحكومية الموالية للأسد خلال الحرب الدائرة في البلاد، بل وفي بعض الأحيان كانت تقاتل خصوماً مشتركين كتنظيم داعش الإرهابي.

ويرى الدكتور شوقي محمد الخبير في اقتصادات الطاقة والنفط في حديث لـطلعنا عالحريّة، أنه "يمكن القول بأن التفوق النوعي يجعل من الإدارة الأميركية الأكثر قدرة على التحكم في سير الأحداث والضغط على باقي الأطراف، وتعد صمام الأمان لهذه المنطقة"، فمن جهة رسالة قوية لحكومة النظام السوري وحلفائها إيران وروسيا، بأن انسحابها سمح للقوات التركية وفصائل موالية من الجيش الحر بدخول المنطقة، "وفي الوقت نفسه رسالة للجانب التركي بأن وجودها يعني عدم قدرة الجيش السوري على السيطرة على المنطقة التي انسحب منها أواخر 2012، وهو يعود اليوم باتفاق مع الأكراد".

وأوضح الأكاديمي شوقي محمد أنّ الحل الأمثل هو "الاستمرار بالتفاوض بين الأحزاب الكردية والحكومة السورية، برعاية دولية، خصوصاً روسيا، لعلاقاتها المتميزة مع دمشق، وبناء أرضية سليمة للتفاوض، عبر رسائل ثقة والتعامل بمبدأ الوطنية لا العقلية الأمنية أو العروبية"، مشيراً إلى أنّ وثائق وأدبيات حزب "الاتحاد الديمقراطي" والإدارة الذاتية لم تشر إلى الانفصال. فلطالما كرَّر مسؤولوها حرصهم على وحدة الأراضي السورية، والتمسك بالحوار السوري- السوري، "فضلاً عن أن الأكراد لا يجدون أنفسهم خارج حدود الوطن"، واعتبر أن أي اتفاق بين الإدارة الكردية والحكومة السورية سيخدم الطرفين "لحماية (قسد) من الهجوم التركي بعد اجتياح المنطقة واستعادة المناطق التي خسرتها، كما سيخدم الحكومة السورية من خلال عودتها للمنطقة الثرية والغنية بالموارد، وبسط سيطرتها على الثروات المائية والحقول النفطية".

فأكراد سوريا يتفاوضون على مجموعة مطالب أبرزها اعتراف دمشق بهياكل الحكم المحلية في سبع مدن رئيسية شكلوا فيها إدارات ذاتية، تقع 5 منها شرقي نهر الفرات، ومنبج الواقعة غربي الفرات والطبقة جنوبي النهر، إلى جانب اعتراف الأكراد بوجود جيش موحّد للدولة على أن تكون (قوات سوريا الديمقراطية) جزء من الجيش الوطني، ويكون لها خصوصية نظراً لانتشارها في معظم مدن وبلدات شرق الفرات. كما يطالبون بالاعتراف الدستوري بالأكراد كمكون رئيسي من مكونات الشعب السوري، وتحديد موازنة مالية لمناطق الإدارة الذاتية ومنها المدن الكردية، والاعتراف باللغة الكردية في مناهج التعليم بالمناطق ذات الغالبية الكردية.

الواقعية السياسية الأوروبية في المشهد السوري

راما الدرويش

أطلق ترامب دعوة لأوربا بتحمل مسؤوليتها تجاه القتال ضد تنظيم داعش، ومهّد للانسحاب الأمريكي من شمال سوريا قائلاً إن على أوربا أن تبادر بالمشاركة في محاربة التنظيم الذي يحمل جزءاً من مقاتليه الجنسية الأوربية. لكن أوربا بالمقابل لم تستجب، وفشلت ألمانيا بإقناع دول الاتحاد الأوروبي بالتدخل في النزاع الدائر شمال سوريا وإقامة منطقة آمنة يشارك فيها حلف الناتو -القوة العسكرية للاتحاد الأوروبي- واكتفى البرلمان الأوربي بالتشجيب بالتدخل العسكري التركي الأخير بعملية " نبع السلام" والتي تريد فيها تركيا استعادة مناطق من الشمال السوري التي تقع تحت سيطرة حزب سوريا الديمقراطي، واستعاض البرلمان عن الاقتراح الألماني بطرح بعض العقوبات على تركيا بهدف الضغط عليها للتراجع عن العملية العسكرية.

دعوات التدخل العسكري تتحول لمشروع إبعاد تركيا عن الاتحاد الأوروبي

تركيا التي هددت بالسماح لتدفق موجة جديدة من اللاجئين لأوروبا واجهت من البرلمان الأوروبي دعوات لوضع حدّ رسمي لمفاوضات انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، والتي تجري منذ عام 2005. بل وهدد البرلمان الأوربي بإنهاء الاتحاد الجمركي الذي يُعفي فيه الاتحاد الأوروبي تركيا من أي رسوم جمركية على معظم الواردات والصادرات باستثناء المنتجات الزراعية.

لكن ذلك لا يسمو لتوقعات وزيرة الدفاع الألمانية أنغريت كرامب-كارين باور؛ فاقتراح وزيرة الدفاع الألمانية كان يرنو إلى إنشاء منطقة آمنة تخضع للمراقبة الدولية وتضم أيضا تركيا وروسيا، الهدف منها حسب التصريحات الرسمية مواصلة الحرب على الإرهاب، ومحاربة تنظيم داعش.

ورغم الانتقادات للطابع السلبي الذي تتسم به ردات فعل ألمانيا والأوروبيين في القضية السورية، والتي تصفه كرامب-كارين باور " بالنظر من وراء سياج" إلا أن التصريحات الألمانية الرسمية تذكر دائماً بأن الجيش الألماني يشارك في مهام في المنطقة ضد تنظيم (داعش) سواء من خلال عملية التدريب أو الاستطلاع الجوي.

لكن ذلك لا يروق لمعارضي هذه السياسة والذين يصرحون مراراً بأن التحالف الأوربي لم يفعل شيئا حيال منع روسيا وإيران من توسيع نفوذهما بشكل منتظم في سوريا ومساعدة الأسد على اكتساب قوة جديدة. بل إن موسكو لا تسمح للأوروبيين أن يكونوا أكثر من مجرد قوة مساعدة في سوريا في خدمة مصالحهم الخاصة.

معارضوا الأسد يريدون المزيد من أوروبا

يتعين على الولايات المتحدة وأوروبا التحرك للضغط على روسيا بإقناع النظام في سوريا بتقديم تنازلات. هذا ماتتوقعه المعارضة السورية والتي تدعو إلى التزام أوروبا والولايات المتحدة بفرض مبادئ ديمقراطية في المفاوضات المقبلة على الدستور السوري الجديد الذي ستتم جلسات مناقشته في دول أوروبية بعد جنيف.

تقول المعارضة السورية (ديما موسى) لجريدة تاغس شبيغل الألمانية إن "على الغرب ألا يسمح لحكومة الرئيس بشار الأسد باللعب بعامل الوقت في المفاوضات تحت مظلّة الأمم المتحدة لإنقاذ سلطتها".

ناشطون حقوقيون أيضاً طالبوا بمقاضاة أسماء من أعضاء من المشاركين في اللجنة الدستورية من وفد النظام السوري خلال وجودهم في أوربا للمفاوضات. المحامي أنور البني ينشر على صفحته أسماءاً يقول إنها متهمة بتعذيب واختفاء العديد من المعتقلين في سجون النظام السوري. يطالب البني بمعلومات تفيد بدعم ملف المعلومات الواردة إليه إضافة للمشاركة بالضغط.

لا يبدو الطريق واضحاً ومعبداً لمحاكمات قانونية للأسماء، بسبب وجود حماية أممية أثناء قدوم وفد النظام السوري لأوروبا. إلا أن منظمات قانونية وناشطين يضغطون للوصول إلى ذلك وتحقيق مطالب العدالة ومعاقبة مجرمي الحرب في سوريا.

عن أسطورة النظام القومي اليساري العلماني المقاوم

ماجد كيالي

منذ قرابة نصف قرن تغطّى النظام السوري بالأيدلوجيا البعثية، وهي مجرّد أيدلوجية إنشائية قومية متحجّرة، تطعّمت بـ"الاشتراكية" و"العلمانية" وفيما بعد بـ"المقاومة"، من دون أي تمثل كل ذلك عملياً، بقدر ما أتت لأغراض الاستهلاك والابتزاز، وترسيخ الشرعية، والتغطية على نظام الاستبداد والفساد.

فوق ما تقدم، فقد روّج النظام لذاته باعتباره باني الدولة، حيث الأسد (الأب) هو باني سوريا الحديثة، التي تدين بوجودها له، ما أوصلنا إلى الشعار المشين والمهين: "سوريا الأسد إلى الأبد"، الذي غطّى أرجاء سوريا، إذ بات ثمّة تماه بين سوريا الدولة ونظام الأسد، حتى لم يعد أحد يستطيع التمييز أو التفريق بين السلطة والدولة.

وكان تم الترويج إلى كل ذلك بواسطة الدولة، وباحتكار، أو باحتلال، المجال العام، وعبر التلفزيون والإذاعة والصحف، والمدارس والجامعات، وجهاز الموظفين، ومؤسّسة الجيش، والاتحادات الشعبية، ومنظمات الطلائع والشبيبة، بوسائل التخويف أيضاً عبر أجهزة المخابرات المنتشرة في المجال المجتمعي.. هذا دون التقليل من الدور الذي لعبه العامل الاقتصادي؛ فمن جهة ثمة الإفقار وتعزيز الاعتمادية على الدولة، ومن جهة أخرى ثمة طبقة رجال الأعمال التي تدين بوجودها وامتيازاتها للنظام.

المفارقة أن إنشاءات النظام تقول كل شيء وتتهرّب من المحدد والمتعيّن؛ أي أنها تشتغل على المواربة والتلاعب، حتى إن الأمر وصل عند البعض، من يساريين وقومجيين وعلمانيين ومقاومين إلى محاباة النظام باعتباره قومي وعلماني ويساري، وربطه بكل ماله علاقة بالحداثة، في حين يعتبر المجتمع بمثابة النقيض لهذا النظام، ما يتطلب تغييره بدل تغيير النظام! مع كل ما في ذلك من تهرب متعمد، غير بريء، من معاناة شعب سوريا، ومن تحديد المسؤول عن هذه المعاناة وضمن ذلك التأخّر الحاصل في المجتمع، باعتبار أن السلطة في واقعنا العربي، من المحيط إلى الخليج، هي من أهم عوامل التأخّر، وضمنه تأخّر الوعي بالديمقراطية وبالمواطنة، وإعاقة قيام الدولة باعتبارها دولة مؤسسات وقانون.

هكذا روّج نظام الأسد، طوال العقود الماضية، لأساطير عدة عن حاله، فهو يساري أو اشتراكي، مثلاً، رغم أن اشتراكيته اختزلت بمصادرة الأراضي، وتأميم الشركات الصناعية الخاصة، وإضعاف البرجوازية الوطنية، وهي إجراءات أدت إلى هيمنة الدولة- السلطة على قطاعات الإنتاج، وتعزيز سيطرتها على المجتمع وعلى المجال العمومي، ما نجم عنه تعميم علاقات الفساد، وتفريخ حيتان جدد، لا سيما من المقربين للعائلة الحاكمة التي باتت تتحكّم بقرابة ثلثي الاقتصاد، بما في ذلك ملكية مساحات واسعة من الأراضي.

أما اعتباره قومياً فذلك ما تمثل بسياساته التدخّلية والإلحاقية التي اتخذت في غالبية الأحيان طابعاً عسكرياً أو عنفياً في محيطه، لا سيما في لبنان، وإزاء الفلسطينيين، وفي العراق الذي عاش على العداء معه، على رغم التقارب الأيديولوجي سابقاً بين نظامي هذين البلدين. ويأتي في ذلك انضواؤه في إطار خدمة سياسة إيران في المنطقة، مع الشبهات التي تحيط بها، لا سيما في سياساتها "العراقية"، وإثارتها النعرة المذهبية في المشرق العربي.

طبعا ثمة فرق في التعاطي في السياسة الخارجية، في عهدي الأسد الأب والابن، لكن النتيجة كارثية في الحالتين. ففي عهد الأسد الأول كانت سوريا ترى في جوارها مجرد ساحة، أو ملعب، لتعزيز نفوذها الإقليمي، بينما في عهد الأسد الثاني باتت سوريا ذاتها بمثابة ساحة يعبث أو يتلاعب بها جوارها. هذا ينسحب على إيران وحزب الله؛ فبينما كان الأسد الاول يتعامل مع إيران كورقة لتعزيز مكانته الإقليمية ولابتزاز الدول الأخرى، فإن سوريا في عهد الثاني باتت ورقة في يد إيران. المهم أنه في العهدين كانت النتيجة واحدة وهي تجاهل وجود شعب سوريا، وحدود قدرة الكيان السوري، وفي الحالين كان السوريون هم من دفع الثمن.

وبالنسبة لأسطورة كونه نظاماً مقاوماً، فهي تثير السخرية والمرارة في آن، فهذا النظام مسؤول عن ضياع جزء من سوريا واحتلاله (هضبة الجولان)، وكان بدأ عهده بإدارة الظهر للمقاومة الفلسطينية في الأردن (1970)، ثم أوقف المقاومة نهائياً من جبهة الجولان، بعد حرب (1973)، وتوّج كل ذلك بشنّه الحرب على المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية (1976)، وهي "مقاومة" لم ينجم عنها إطلاق رصاصة واحدة باتجاه إسرائيل طوال أربعة عقود، ناهيك عن أنه دعم كل الحروب التدميرية ضد مخيمات لبنان، والتي قام بها حلفائه.

أخيراً، تبقت اسطورة "العلمانية"، التي هي مجرد غطاء يحاول من خلالها النظام التلاعب بما يسميه "أقليات"، وبالتالي حراسة الواقع الطائفي والمذهبي في سوريا، بادعائه حمايتها، في حين أنه يغطي في كل ذلك سياساته القائمة على الحؤول دون تحول المجتمع إلى مجتمع حقاً، مع وجود مواطنين متساوين حقاً أمام القانون وأمام الدولة، من دون أي تمييز ديني أو مذهبي أو اثني أو جنسي، وأيضا الحؤول دون قيام الدولة باعتبارها دولة حقاً، أي دولة مؤسسات وقانون، مع فصل بين السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية؛ هذا من ناحية. من ناحية ثانية، وفي الحقيقة فإن أكثر تيار إسلامي في سوريا هو في خدمة النظام، أو تحت رعايته، أو صنيعته، إذا دققنا في المعاهد الشرعية، وطبقة رجال الدين، والمشايخ الذين يحتفي بهم النظام ويحتفون به.

القصد أن سياسة "فرق تسد" هي السياسة التي انتهجها النظام لتكريس شرعيته وترسيخ سلطته، وإظهار أي محاولة للخروج على هذا الوضع بمثابة تمرد طائفي أو حرب أهلية، أو صراع أقليات وأكثريات، على نحو ما يفعل اليوم.

وفي المحصلة، فقد نمّى نظام الأسد بديماغوجيته نوعاً من الجماعات الإسلامية والإسلاميين، مثلما نمّى جماعات من رجال الأعمال والمثقفين والفنانين والأكاديميين، ومن كل التيارات اليسارية والقومية والعلمانية والليبرالية، من المتصالحين أو المتسامحين مع نظامه، ومعظم هؤلاء لعب دوراً كبيراً في عمليات التضليل والتدجين التي انتهجها النظام.

هذا كله يفسّر رواج تلك الأساطير، وصمود صورته المتخيّلة عند كثيرين، لا سيما عند بعض يساريين وعلمانيين وقوميين ومقاومين خارج سورية، أي ممن لم يكابِدوا سطوته ولا بطشه.

طائفة سورية جديدة ظهرت بعد الثورة اللبنانية!

حسن عارفة

مع بدء الثورة في لبنان ونزول الشعب هناك إلى الشوارع، متحدياً نظامه القائم على المحاصصة الطائفية، عشنا، كسوريين، لحظاتنا الأولى عام 2011، وكأننا هناك في الزمان والمكان قبل ثماني سنوات! هنا ثورة وهناك ثورة، وحبل المشيمة واحد كما يبدو.

هزّت أمواج اللبنانيين من شمالي البلاد إلى وسطها وجنوبها، أركان الحكومة في بيروت، فسقطت، بانتظار زلزال كبير في قصر بعبدا ينتج عنه ما يتمناه الثائرون الذين أبدعوا بلا حدود منذ السابع عشر من شهر تشرين الأول، وما نتمناه لهم، سقوط النظام الطائفي والبدء ببناء منظومة مصلحتها الأولى شعب لبنان.

لكن بينما جمهور الثورة السورية يتابع ما يحدث في لبنان، بشغفه الأول وكل مشاعره التي كان يشعر بها في شوارع سوريا، ثمة جمهور سوري آخر يعاديه جداً ويتفق معه في آن واحد، ولكن حول ثورة أخرى! هو جزء من مؤيدي النظام السوري وعاشقي بشار الأسد. هنا تبدو أم التناقضات بشكلها الفاقع والقبيح: مؤيدون لدكتاتور قتل جيشه وميليشياته 199455 مدنياً ومدنيةً في سوريا بحسب الشبكة السورية لحقوق الإنسان، ويشجعون ثورة تحدث في بلد آخر، يتغنون بها ويؤيدونها، بينما يرون في ثورة أبناء جلدتهم مؤامرة كونية تستهدف مخلّصهم وسيّدهم وقائدهم الأبدي.

المشكلة معقدة في هذه الحال لكنها بسيطة، قد لا يفهمها هذا الجزء من الناس (جمهور الأسد مؤيد الثورات خارج سوريا) فثمة مفاهيم لا تتجزأ؛ المجرم مجرم حين يقتل ويعتدي، بغض النظر عن عرقه ودينه وحتى دوافعه، ذلك أن فعل القتل واضح ومجرد بذاته لغوياً لا يحتاج للكثير من التفسير والتحوير، ولا يمكن تجزيؤه! وكذا الدكتاتور الذي وصل إلى سدة الحكم في بلد ما، وقتل أبناء شعبه، يظل دكتاتوراً بأفعاله، من صدام حسين إلى حافظ الأسد وابنه، مروراً بمعمر القذافي، وليس آخراً زعماء الطوائف في لبنان، وما يشبههم من زعماء الدول العربية الذين سقطوا وغيرهم من الحاليين.

وكما هذه المفاهيم غير قابلة للتأويل، كذلك ثورات الشعوب على أنظمتها البائسة التي مصّت دمها وفعلت ما فعلت بها. فثورة اللبنانيين تمثل أهلها وكل طالبي الحرية والعدل، وتمثلنا كسوريين ضدّ الدكتاتورية، تشبهنا ونشبهها، وتذكرنا بكل التفاصيل الجميلة في ثورتنا، التي حرقتها الدول المتحكمة حالياً بأرضنا وحدودنا ومصيرنا.. ودستورنا!

ربما يبدو كل ما يحدث حول العالم في كفّة، وأولئك (جمهور الأسد مؤيد الثورات خارج سوريا) في كفّة أخرى، أو كوكب آخر، إذ تستحق أن تتزعم هذه الجوقة الغريبة فنانات وفنانون يعشقون الأسد حتى الموت، يتفقون مع الظلم بفجاجة، ويختلفون معه بفجاجة أكبر في مناطق أخرى، ليشكلوا طائفة مقيتة جديدة ظهرت مؤخراً -أو كانت موجودة ولم ننتبه- في سوريا، شبيهة بأسوأ أنواع السياسة!

عن استعصاء القضية الكردية

طارق عزيزة

تنطوي القضية الكردية على جملة معطيات معقّدة، تتداخل فيما بينها لدرجة تتبدّى معها مستعصيةً على الحل أو تكاد. فهي إذ تمتد من حيث جذورها وتفاعلاتها، كما النتائج التي قد تتأتّى عن حلّها، لتطال أربع دول (تركيا، العراق، إيران، وسوريا)، سيكون من الصعب التعامل معها سواء على المستويين الإقليمي والدولي أو على المستوى المحلّي من منظارٍ واحد، أو بوصفها قضيةً واحدة. فقد أسهمت أحوال الأكراد وظروفهم المتباينة في كلّ من تلك البلدان، إلى هذا الحدّ أو ذاك، في اندراج قضيّهم ضمن سوق التجاذبات وبورصة المصالح الإقليمية والدولية المتداخلة، ما أدّى بها إلى مزيد من التعقيد.

استغلّت دول عدّة حالة التشرذم التي تعانيها القوى السائدة في الأوساط الكردية وخلافاتها التي تتقاطع في بعض جوانبها مع اختلاف البنى الأهلية والسياسية للشعب الكردي، الأمر الذي سهّل على أنظمة المنطقة وسواها استخدام الأكراد لضرب بعضهم بعضاً حيناً، أو للزج بهم في صراعاتها البينية أحياناً.

وفي المقابل لم تتورّع أطراف كرديةٌ رئيسية في صراعاتها الداخلية عن الاستعانة بأنظمة تعادي الحقوق الكردية، على نحو ما جرى بين أكراد العراق أواسط تسعينيات القرن الماضي، حين تلقّى "الاتحاد الوطنيّ الكردستانيّ" وكان يقوده جلال طالباني دعم الحرس الثوريّ الإيرانيّ، خلال صراعه الدامي مع "الحزب الديمقراطيّ الكردستانيّ" بزعامة مسعود برزاني، الذي كان يستعين بقوّات النظام العراقي، ولم يتوقّف القتال بينهما إلا بعد وساطة أمريكية أفضت إلى توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار في أيلول/ سبتمبر من عام 1998.

وأيّاً تكن مبررات كل طرف ومسوّغاته، فإن هذا الأمر يدلّ على أن المصالح الحزبية والسياسات الخاصة الضيقة لدى القوى الكردية الرئيسية يمكن أن تطغى على المصالح القومية العليا، وهو ما قد يجعلها، من حيث تدري أو لا تدري، أداةً في يد الحلفاء أو حتى الخصوم. ذلك أنّ سياسات الدول إنما تحرّكها المصالح وتوازنات القوى وليس التعاطف مع القضايا العادلة أو تأييد حقوق الشعوب. على هذا الأساس، سيكون مفهوماً كيف أن علاقات الولايات المتحدة مع الأكراد كثيراً ما كانت تشهد تقدّماً أو تراجعاً بدلالة تطوّر

علاقة واشنطن مع إحدى الدول المعنية بالقضية، وفي الوقت عينه تنتهج سياسة مختلفة في ما يخصّ حقوق الأكراد في دولة أخرى مجاورة، فضلاً عن متطلبات "الأمن القومي الأمريكي".

هكذا دعمت الولايات المتحدة أكراد العراق بقوّة في وجه نظام صدّام حسين إلى أن نجحوا في تأسيس إقليم كردستان، واستمرت في دعمهم بعد إسقاطه. أما في تركيا، الدولة العضو في حلف شمال الأطلسي، فقد اتّسم الموقف الأمريكي حيال القضية الكردية هناك بالتذبذب، حيث أن واشنطن أدرجت "حزب العمال الكردستاني" على قوائم الإرهاب من جهة، ومن جهة أخرى واصلت دعواتها إلى احترام الحقوق الكردية ضمن مساعي دعم جهود الدمقرطة في تركيا.

أما في سوريا، فالأمريكيون أنفسهم بالكاد بدؤوا الالتفات إلى الأكراد السوريين مطلع الألفية الجديدة، بعد صمت مطبق حيالهم طيلة عهد الأسد الأب، ثمّ تغيّر الموقف نتيجة التحولات التي طرأت على المشهد السوري خلال الثورة ثم الحرب السورية، وخاصّةً بعد ظهور تنظيم "الدولة الإسلامية" أو "داعش"، حيث اعتمد الأمريكيون بشكل كبير على جهود المقاتلين الأكراد وقدّموا لهم الدعم العسكري المباشر لقتال التنظيم، وبالفعل أفضى التعاون بين الجانبين إلى هزيمة التنظيم الإرهابي. لكن نهاية التنظيم تبعها تبدّل كبير في علاقة الولايات المتحدة مع الحلفاء الأكراد، وهو ما سمح لتركيا، عدوّ الأكراد الأبرز، بتنفيذ عمليات عسكرية ضدّهم داخل الأراضي السورية، كان آخرها "نبع السلام".

ما سبق يؤكّد أن القضية الكردية لم تكن في أي وقت شأناً كردياً خالصاً، ويخطئ من يعتقد أنّ بإمكان الأكراد فرض إرادتهم على الآخرين، شأنه شأن من يعتقد بإمكانية فرض إرادة الآخرين عليهم. فالتأثير الحاسم للعوامل الإقليمية والدولية يجعل من الموضوع قضية وطنية بامتياز في سوريا كما في غيرها من الدول المعنية، وهذا يتأتى أيضاً من تباين تجربة النضال الكردي تبعاً لاختلاف ظروف وخصائص تلك الدول. وتطوّر القضية الكردية في كلٍّ منها هو بالضرورة جزء من التحولات التي تصيب البلد المعني، بما لها من نتائج على المستوى الوطني.

إنّ المدخل الأساس الذي لا غنى عنه للتخفّف من عبء العبث الإقليمي والدولي في القضية الكردية، وتالياً فك الكثير من العقد التي لطالما جعلتها عصية على الحل، يكمن في التفاهم وتسوية الخلافات الكردية- الكردية، بالتوازي مع إيجاد صيغ متينة من التعاون والشراكة الفعلية مع بقية شعوب المنطقة، في ضوء المصالح المشتركة.

فإذا كان تشدّد الأنظمة المختلفة في المنطقة حيال الأكراد ورفض الاعتراف بحقوقهم سبباً رئيسياً في معاناتهم وتعثّر قضيّتهم، وهذا صحيح، فالصحيح أيضاً أنّ تشدّدهم حيال شركائهم من شعوب المنطقة، الذين هم بدورهم ضحايا للأنظمة نفسها، لن يكون السبيل إلى حلّ قضيتهم، لاسيما مع كل التعقيدات التي تكتنفها، وهو ما تؤكّده وقائع التجربة التي خيضت في مناطق الجزيرة السورية شرق نهر الفرات، أو "روجافا/غرب كردستان" وفق التسمية الكردية.

الانسحاب الأمريكي يزعزع استقرار المنطقة

غازي دحمان

يزيد انسحاب القوات الأمريكية من سوريا تعقيدات الوضع المعقّد أصلاً؛ وذلك بإخلاله للتوازنات التي تأسست على مدار السنوات الفائتة، ويترك فراغات هائلة لقوى وأطراف ثبت أنها غير قادرة على إخراج البلاد من أزمتها، فضلاً عن امتلاكها لمشاريع جيوسياسية من شأنها التأثير على ما تبقى من استقرار في سوريا.

كانت السنوات السابقة كافية لمعرفة طبيعة المشاريع التي تروم الأطراف الإقليمية وروسيا تنفيذها في سوريا. الجميع وضع أوراقه على الطاولة، والجميع صنعوا سرديات وذرائع تسند مشاريعهم؛ من محاربة الإرهاب إلى الحفاظ على وحدة الأراضي السورية.. أما عيونهم فقد كانت مصوّبة بإتجاه حجم الغنائم الممكن تحقيقها من سوريا المريضة.

التدخل الأمريكي، وإن جاء متاخراً سنوات عن الوعد الذي أطلقه رئيس الإدارة الأمريكية السابق باراك أوباما، من أن بلاده ستتدخل حال استخدم نظام الأسد الأسلحة الكيماوية، رغم ذلك، فإن هذا التدخل الضعيف والمتأخر، فرض سياقاً جديداً للأحداث، وأوجد معادلة أجبرت اللاعبين الآخرين على الحذر من اختراقها أو محاولة المسّ بها.

انبنت المعادلة الأمريكية على ضرورة إيجاد حل للأزمة السورية وفق مقتضيات قرارات مجلس الأمن ذات الصلة، وخاصة القرار 2254 الذي يطالب بإجراء عملية انتقال سياسي، والتوصل إلى تسوية سياسية دائمة للأزمة، وتشكيل هيئة حكم ذات مصداقية، وتشمل الجميع وغير طائفية، واعتماد مسار صياغة دستور جديد. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد مرّرت هذه المطالب في بيان فينا، قبل ذلك، وضمنت موافقة أغلبية دولية، من ضمنها روسيا، وهو ما مهد لصدور القرار 2254 دون اعتراض.

وساهم الوجود العسكري الأميركي في شرق سوريا، في تقوية موقف واشنطن السياسي، ودعم أوراقها في مواجهة الأطراف الأخرى المنخرطة في الصراع السوري، إذ أن جميع هذه الأطراف: روسيا وإيران وتركيا، كانت تدرك مدى قدرة أمريكا في التأثير على الوضع النهائي في سوريا، وأنها بمواردها العسكرية والدبلوماسية قادرة على جعل استقرار تلك الأطراف في سوريا أمراً دونه عقبات كثيرة. لذا حاولت هذه الأطراف تجنب الدخول في نزاعات مباشرة معها، كما أنها، وهذا الأهم، اضطرت في بعض الأحيان إلى تخفيض سقف مشاريعها، والمثال على ذلك تأثير الوجود الأمريكي على مشروع طريق إيران البري من العراق إلى لبنان مروراً بسوريا.

يمنح الانسحاب الأميركي اليوم هذه الأطراف، انتصاراً سهلاً، ويعيد الحيوية لمشاريعها في سوريا، كما يعطيها المجال لنقض تعداتها السابقة بخصوص العملية السياسية في سوريا. والمعلوم أن هذه الأطراف تطمح إلى هندسة الحلول في سوريا بما يناسب مصالحها، وقد أسست لهذه الغاية منصّة أستانة في محاولة منها لأخذ الحل السياسي إلى المطارح التي تبتغيها. واليوم بعد الانسحاب الأمريكي لم يعد ثمة عائق يحيلها من تنفيذ رغباتها ومطامحها في سوريا. أما الرهان على تضارب أجنداتها واحتمالات اختلافها، فهو رهان غير صحيح، على اعتبار أن هذه الأطراف قد عملت في السنوات السابقة على تشبيك علاقاتها البينية بدرجة كبيرة، وهي قادرة على استيعاب أي خلاف بينها.

المشكلة في الأمر، أن أمريكا تغادر سوريا على جثة مجتمعات محليّة محطمة، استنزفتها سنوات صراع طويلة، وخسرت نخبة أبنائها في ساحات الصراع. كما لا يوجد سند إقليمي لها. وستجد نفسها مضطرة إلى القبول بتسويات تفرضها سلطة الأمر الواقع: روسيا وحلفاؤها. الأمر الذي من شأنه دفع هذه المجتمعات إلى البحث عن حلول أخرى، قد يكون التطرف أحدها، وعودة الأمور تالياً إلى مربع صراع الأصوليات والديكتاتوريات، وهو الصراع الذي من المفترض أن التطورات تجاوزته لصالح حل سياسي بإشراف دولي، بعد أن دفعت تلك المجتمعات أثماناً مرتفعة للوصول إليه.

لم يعد السؤال مجدياً عن مدى صوابية قرار دونالد ترامب بالانسحاب في هذا التوقيت من سوريا، الأمر حصل وصار هناك واقع جديد، يصعب حتى على أمريكا نفسها تغييره. والأجدى البحث عن مخارج جديدة من هذا المأزق، وإن كانت هذه المخارج تبدو بعيدة جداً، كما لا يمكن التعويل على إمكانية تدخل حلف الناتو لسدّ الفراغ الذي تركته أمريكا، لأن الفكرة جاءت متأخرة جداً.

المنطق يقول إن المخرج الأكثر إمكانية هو اتحاد المتضررين، وهم جميع المكونات السورية، التي انكوت بنيران الديكتاتورية وتدخلات القوى الأجنبية، وإذا كان هذا الأمر ممكناً من الناحية النظرية، إلا أن تطبيقاته على الأرض تبدو صعبة في ظل وجود نخب وقيادات مرتهنة للخارج، على الأقل في الوقت الراهن.

نحو إعلام مهني ونسوي

شبكة الصحفيات السوريات والإعلام الحساس لقضايا الجندر

شادن عبد الرحمن *

بدأت مؤسسة شبكة الصحفيات السوريات كمبادرة نسوية قادتها الصحفيتان رولا أسد وميليا عيدموني مع بداية الحراك الشعبي المناهض لنظام الأسد في سوريا عام 2011، واتخذت المؤسسة شكلها الحالي في بداية عام 2013 لتعمل على بناء جسور بين الإعلام والحراك النسوي السوري بالداخل السوري من جهة، ودول اللجوء من جهة ثانية، عبر العمل على بناء قدرات الصحفيات والعاملات في المجال الإعلامي وتمكين النساء للوصول إلى مناصب قيادية في مؤسساتهن.

وتعنى المؤسسة بتسليط الضوء على الخطاب الإعلامي وتقديم نقد جندري لهذا الخطاب من خلال البحث والتحليل الدوريين، والذي تقوم به خبيرات في مجال الجندر والنسوية، سعياً لتحسين صورة النساء في وسائل الإعلام السورية وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين.

ومنذ تأسيسها حتى الآن، عملت المؤسسة على تدريب ما يزيد عن 250 من الصحفيين والصحفيات والنساء واليافعات على الكتابة المراعية للنوع الاجتماعي، بالإضافة إلى ورش عمل تتناول أساسيات العمل الصحفي. كما بلغ عدد المستفيدات الصحافيات والصحافيين والناشطات الإعلاميات حوالي 150 صحفية وصحفي.

سلامة وأمن الصحفيات

منذ تأسيسها تعمل الشبكة على رفع مستوى الوعي حول السلامة المهنية من خلال توفير تدريبات للصحفيات والصحفيين، بهدف خلق المعرفة في كيفية إدارة وتحليل المخاطر، وأولويات ومعوقات السلامة، وتسليط الضوء على التحديات التي تواجه الصحفيات والمدافعات عن حقوق الإنسان تحديداً خلال عملهنّ، وتعزيزاً لدور المؤسسة في رفع الوعي حول أمن وسلامة الصحفيات والمدافعات. كما أطلقت مؤسسة الصحفيات السوريات دليلاً للسلامة، تطرح فيه تقنيات وآليات عملية للصحافيات والعاملات بالمنظمات لمواجهة التحرش بمكان العمل وخارجه، وبناء ثقتهن بأنفسهن في أثناء عملهن الميداني. بالإضافة إلى أنها قدمت لجهات ومنصات صحافية إعلامية سورية شريكة تدريبات في مجال الأمن الرقمي للصحفيين والصحفيات والعاملين والعاملات في منظمات المجتمع المدني النسوي.

أما في مجال الاستشارات القانونية، أطلقت المؤسسة دليلاً إرشادياً في شهر حزيران (يونيو) 2019 حمل اسم: "حبر مو ناشف" حول القوانين الإعلامية في 5 دول إقليمية، أعدته المحامية ومستشارة المؤسسة القانونية رهادة عبدوش ليسلط الضوء على الحساسية للنوع الاجتماعي في قوانين ومواثيق الشرف الإعلامية في كل من سوريا وتركيا والعراق والأردن ولبنان.

معرفة نسوية "تقاطعية"

تركز مؤسسة شبكة الصحفيات السوريات على إنتاج معرفة نسوية متنوعة "تقاطعية" عبر برنامجها "جندر رادار" الذي يهتم برصد المحتوى الإعلامي في المؤسسات الإعلامية السورية التي ظهرت بعد عام 2011، وإنتاج دراسات دورية لتحليل ونقد الخطاب الإعلامي جندرياً، من خلال زيارات ميدانية وحلقات تدريبية، وتقديم استشارات لتطوير التفكير النقدي داخل المؤسسات الإعلامية بالإضافة لكتابة ومناقشة توصيات بغية تطوير السياسة التحريرية بطريقة تشاركية. كما يساعد برنامج "جندر رادار" على خلق بيئة إعلامية

تتمة ص 12....

المرأة ... زهر الربيع العربي وعصب ثوراته

نبيل شوفان

في سوريا وتونس ومصر واليمن، ولاحقاً في السودان ولبنان والعراق والجزائر، شكّلت النساء خط الدفاع الأول عن مطالب الشعب، في ثورات لم تكن أبداً حكراً على الرجال؛ فوضعن أنفسهن في مواجهة الفساد والقمع، والمجتمع الثائر على حد سواء.

من الطبيعي أن المرأة في كل الدول التي شهدت ثورات واحتجاجات، صارت معنية بالتظاهرات المطلبية؛ فإضافة لتطابق مطالبها مع مطالب الرجل كمواطن يحلم بتحقيق الديمقراطية والتغيير ومحاربة الفساد، واستعادة الأموال المنهوبة، تبدو المرأة منقوصة الحقوق عن الرجل نفسه، وبالتالي كان وجودهن على الأرض ضرورة.

وفي تونس استبسلت المرأة بعد عام 2011، في الدفاع عن حقوقها، فحصلت على تعديلات دستورية كبيرة على صعيد مساواتها مع الرجل، كالقانون الانتخابي وجوازات السفر، وإلغاء تحفظات جمهورية تونس على اتفاقية "سيداو" المتعلقة بالقضاء على كل أشكال التمييز ضد المرأة.

وفي لبنان وتقديراً لدور المرأة اللبنانية، كانت جريدة النهار سباقة في إرسال تحيّة خاصّة للمرأة الثائرة، فأصدرت عدداً خاصّاً لزهرة الثورة، وغيّرت فيه اسم الجريدة إلى "نهارك"، مضيفة كلمة "للنساء" في النشيد الوطني في المقطع الذي يقول "سهلنا والجبل منبت للنساء والرجال"، تقديراً لدورها الفعال في الانتفاضة الجارية.

وفي السودان تحولت الناشطات اللاتي شاركن في الثورة إلى أيقونة (الكنداكة)، وفي الحكومة الجديدة حصلت النساء على وزارات هامة وسيادية كالخارجية، فيما بدأت المرأة معركة تحصيل حقوقها كاملة هناك.

وفي العراق الذي ما يزال يعيش أياماً دامية، تتعرض الناشطات للاختطاف والاعتقال والقتل، لأنهن محرك الاحتجاجات، فما إن تظاهرت المرأة العراقية، حتى لم يبقَ رجل في بيته، وغصت ساحات التعبير عن المطالب بمئات الآلاف من الأمهات اللاتي خبزن الرغيف، والشابات اللاتي يقمن بدور بطولي في إسعاف الجرحى من المتظاهرين، فكتب فيها العراقيون بلهجتهم الجميلة أقوى القصائد التي انتشرت الأسبوع الفائت على مواقع التواصل متغزلين بجمالها ومادحين قوتها.

وفي سوريا التي عاشت ثورتها حالة قمع شديد، ومع ظهور تيارات إسلامية متشددة نجحت أحياناً بالسيطرة على المشهد، فإن ما قدمته المرأة من نشاط سياسي ومدني وميداني وإعلامي، تحول في بعض الأحيان، إلى كابوس، كما حصل مع رزان زيتونة وسميرة الخليل وغيرهما في منطقة تحت سيطرة ما كان يسمى جيش الإسلام.

ورغم قتامة الصورة إلا أن المرأة السورية، أصبحت فاعلة على كافة الأصعدة، في أماكن غياب النظام القمعي، والحركات الإسلامية.

إن إقرار قوانين كالمساواة في الميراث، والحماية من العنف الأسري، وحقّ حصول الأبناء على الجنسية، والدفاع عن حق النساء في التعليم والعمل والتعبير واللباس واختيار الشريك، والعمل على تغيير نظرة المجتمع للمرأة كجسد وجمال وجنس وإنجاب ومطبخ.. قضايا ملحّة تحتمل طرحها الآن، على عكس ما يروج البعض بأن طرحها ما زال مبكراً، وإلا ستصبح النساء ضحية ثورات هنّ أشعلنها.

حتى في السعودية أذابت نار الثورات العربية، وكفاح المرأة السعودية المستميت، الجليد عن الحديث حول حقوقهن بأقل تقدير، فنالت حقها في القيادة، والسفر بدون وكيل.

وفي النهاية فهذه جردة قصيرة، عن رحلة النساء العربيات، داخل قطار الثورات، في رحلة ما تزال في بداياتها. لكن لنتذكر، ونذكر، أن ما قبل عام 2011، كان الباحث عن حقوق النساء في اثنين وعشرين دولة عربية، كالباحث عن كلمة "حرية" في سجون وأقبية تلك الدول.

بقي على الثورات أن تردّ الجميل لصانعاتها، فلا تقصيها من الحياة العامة، على المستويات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، وليتجرأ شبابنا على تجاوز النظرة الناقصة، وممارسة الإرهاب المعنوي، على ناشطة قررت بملء إرادتها خلع أو ارتداء حجابها، أو أخت أحبّت شاباً، أو مهندسة تقوده، أو صحفية ترأسه، أو شرطية توجه له الملاحظات.. فبلاد عظيمة تقودها اليوم نساء بحجم وطن.

انتهاك كرامة النساء السوريات..
سلاح استخدمته الجهات المتحاربة، ولعنة لاحقت الجميع

هنادي زحلوط

ربما كان لافتاً أن كل الأطراف في الحرب السورية أصرت على استخدام النساء كرهائن حرب للضغط على الأطراف الأخرى التي أدخلت البلاد في حروب عبثية. كما لم تسلم شريحة كبيرة من السوريين من هذا الانتهاك؛ فالثائرات السوريات كنّ -ولازلن- مستهدفات بشكل مباشر من قبل النظام السوري، فكان يعتقلهن ويودعهن السجون والزنازين الانفرادية.. وشهدت سجون النظام حالات لاعتقال نساء حوامل وأخريات مع أطفال صغار، إلى جانب نساء يعانين من أمراض مزمنة ومستعصية. وكان تركيز النظام دوماً بالضغط على المرأة وأسرتها؛ فمرات كانت هي المستهدفة من الاعتقال، وقد تعتقل للضغط على زوجها أو أخوتها ووالدها، لتسليم أنفسهم، أو لتحقيق تراجع ما عن مواقفهم.

بلغ عدد النساء السوريات المعتقلات في سجون النظام عشرات الآلاف، وفي ظل الحالة السورية يستحيل توثيق ومعرفة الأرقام الدقيقة ووجود إحصاءات، على الرغم من الجهود التي تبذلها منظمات حقوق الإنسان والشبكات المعنية بهذا المجال،إذ تم تسجيل شهادات لنساء تم تعذيبهن بالكرسي الألماني وبالضرب المبرح! وأظهرت صور قيصر صوراً لنساء قتلن وتم وضع رقم على جباههن التي لم تنحنِ، وتحولت القضية إلى رقم ليس أكثر، في بلد مزقته نيران الحرب.

نساء أخريات تعرضن للاغتصاب، ولم تكن الخارجات من هذا الجحيم بقادرات على أن يفخرن باعتقالهن، وهذا ما عمد النظام إلى ممارسته على المدى البعيد، فترك الاعتقال ندوباً عميقة على نفوس النساء والفتيات، في مجتمع شرقي محافظ ما زال بعض مواطنيه يرون في المرأة "عورة" لا يحقّ لها التحدث أو الاعتراض، ويرون أنها خلقت للمنزل والأولاد فقط.

وعندما أراد مقاتلو المعارضة المسلّحة الضغط والمطالبة بتحرير المعتقلات لدى النظام ارتكبوا الجريمة ذاتها باعتقال نساء أخريات، مثل راهبات

مسيحيات! طبعاً مع الفارق الكبير في المعاملة، لكن اعتقال الراهبات أعاد للأذهان رواية اضطهاد المسيحيين في الشرق الذي أوغل بحروب لا متناهية، بينما الرواية الصحيحة أو ربما التي تحتاج تصحيحاً صغيراً وهو أن كل الطوائف مضطهدة في شرق الديكتاتوريات، حيث لا مواطنة حقّة بل عبودية أرادها الحاكم غير سامح بسواها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، أراد مقاتلو جبل الأكراد في اللاذقية المطالبة بإطلاق سراح معتقلات ومعتقلين لدى النظام من اللاذقية وريفها ومن جبلة، اختطفوا نساء علويات مع أطفالهن وهم واهمون أن بإمكانهم الضغط على النظام بهذه الطريقة لإطلاق سراح المعتقلين.

لم يحرك النظام ساكناً من أجل هؤلاء المختطفات، بل استثمر القضية في هذا الفعل ليظهر على مؤيديه وجمهور الساحل بروايته القديمة حول استهداف العلويين، سيما مع فرض مقاتلي المعارضة الحجاب على النساء والفتيات العلويات الصغار الذين قاموا باختطافهن، وأظهروهن في فيديوهات متعددة وفي أكثر مرة محجبات حزينات ومنكسرات. ولم تنفع الكثير من المناشدات لهذه الفصائل بالكف عن استخدام النساء أدوات ضغط لأن هذا لا يقدم سوى الإساءة لهم ومساواتهم بالنظام الذي يحاربونه؛ فالنظام اللا أخلاقي الذي خرجوا ضدّه بثورة حرية وكرامة لم يوفقوا في الأدوات التي اختاروها، وجابهوا اعتقال النساء والأطفال بفعل من ذات السويّة الأخلاقية.

غير أن الحالة مستمرة حتى يومنا هذا حيث تظهر مجدداً هذه الآفة الأفعال اللا أخلاقية، فنرى أحد قادة الفصائل السابقة يأسر مقاتلة كردية منتسبة لوحدات حماية المرأة الكردية، ويفاجر باعتقالها، ويقوم بأخذ صورة سيلفي أثناء اعتقالها مع ثلة من الرجال الذين ظهر عليهم الانتشاء والسعادة والنصر التاريخي كونهم انتصروا على النظام وتحققت أهدافهم باعتقال هذه المقاتلة وهي مصابة وجريحة!

تعود هذه المرأة لتظهر في صورة أخرى على سرير مستشفى مع خبر مسرّب بأنها تعالج في تركيا وهو ما يشي بتسليمها إلى السلطات التركية من قبل مختطفيها "الوطنيين" بالطبع لسنا هنا ندافع عن قوات سوريا الديمقراطية وفصيل الوحدات الكردية التي تنتسب إليه المقاتلة، لكننا ندافع عن حق هذه المرأة ولو كانت مسلحة مقاتلة، وكل النساء المعتقلات بحمايتهن واحترام الاتفاقيات الدولية المتعلقة بأسرى الحروب، وعدم إجبارهن على التصوير، أو تعذيبهن أو إهمال علاجهن، أو إيذائهن نفسياً وجسدياً، وهي اتفاقيات تم انتهاكها من قبل كل الأطراف المتحاربة على الأرض السورية.

تستطيع المرأة أن تكون مدنية أو عسكرية أو سياسية أو ناشطة مدنية، هذه خياراتها، لكن أياً من ذلك ليس سبباً لاعتقالها وتعذيبها وانتهاك حريتها وخصوصيتها وكرامتها، تستطيع المرأة أن تكون معارضة أو موالية لكن ذلك لا يجب أن يجعلها أداة للضغط على الطرف الآخر بانتهاك حرمتها وإجبارها على ما لا ترغب فيه. فهؤلاء المسلحون -على مختلف انتماءاتهم وولاءاتهم العسكرية- من كل الأطراف فشلوا في إقناعنا بأحقيتهم في استلام زمام الأمور، لأننا لم نرَ على أيديهم سوى سلسلة غير منتهية من الانتهاكات بحق البلاد والعباد، طالت الأرض والشجر والحجر، ولم تميز النساء والرجال، الأطفال الصغار والشباب والعجز.

لم يستطع المسلحون في النظام أو المعارضة أن يروا فينا مواطنين متساوين قادرين على الإعراب عن قناعاتنا دون أن يستخدمونا للوصول إلى السلطة. لقد اغتنى أمراء الحرب على حساب انتهاك كرامة الناس وعلى حساب دقائق عمرهم، في الوقت الذي تركوا فيه أحبة أحوج ما يكونون إليهم.

شيء واحد بقي نستطيع أن نحلم به نحن الضحايا ونعمل لأجله: العدالة لكل من انتهكت إنسانيته بغض النظر عن جنسه وعمره ولونه؛ فالعدالة وحدها الآن تستطيع أن تجعل البداية من جديد ممكنة، وتعيد الأمور إلى نصابها. لكننا نحتاج أن نكون أقوياء لنفرض على الجناة المثول أمام هذه العدالة المنتظرة. وما بين العدالة والمواطنة، طريقنا نحو المستقبل ممكن ولو كان طويلاً.

نحو إعلام مهني ونسوي

.... تتمة من ص 10

مهنية معنية بالجنسانية مراعية للفوارق بين الجنسين، ويسعى تعزيز التفكير النقدي أثناء صناعة المحتوى وعمليات الإنتاج والتقييم، من خلال بناء القدرات والمهارات الصحافية المراعية للحساسية الجندرية.

وكجزء أساسي من برنامج "جندر رادار"، تعمل المؤسسة على تطوير سياسة تحريرية تراعي الفوارق بين الجنسين كنقطة مرجعية للمؤسسات الإعلامية الشريكة، كما يهدف البرنامج بالتشارك مع المؤسسات الإعلامية إلى تحديد الثغرات والفرص المتعلقة بالمساواة بين الجنسين، ورصد أي اختلافات في الفرص وظروف العمل، والمشاركة في صناعة القرار.

"قالت" وكسر الاحتكار الذكوري للإعلام

ومن بين أبرز البرامج التي أطلقتها المؤسسة في النصف الثاني من العام الجاري، منصة "قالت" نتيجة لتغييب الأصوات والخبرات النسائية عن التغطيات الإعلامية، والحاجة إلى تعدد المصادر الصحفية كأساس مهني، وصولاً إلى تغطيات إعلامية شاملة وحساسة للنوع الاجتماعي، وهي أول منصة إلكترونية سورية، تضم حالياً أكثر من 100 سيرة لخبيرة سوريّة كمرحلة أولى من مختلف المجالات في السياسة، الاقتصاد، العلوم، حقوق الإنسان، الصحة والبيئة وغيرها. وتمنح "قالت" النساء فرصة أكبر لمشاركة خبراتهنّ عبر كسر الاحتكار الذكوري لتقديم المعلومات والتحليلات عبر وسائل الإعلام كما تسعى المؤسسة لتدريب وبناء قدرات الخبيرات السوريات لتشجعيهن على تكثيف ظهورهنّ الإعلامي، وتساهم عن طريق "قالت" وبناء قدرات النساء في الرد على حجة عدم وجود خبيرات كمصادر للمعلومات والتحليلات المعمقة.

كما نشرت مؤسسة شبكة الصحفيات السوريات عشرات المقالات والتحقيقات والأبحاث بالتعاون مع منصات إعلامية مثل الغارديان وصحفيين/صحفيات مستقلين/مستقلات والتي تناولت قضايا مهمشة ومعتم عليها تحقيق بعنوان "النساء في المناهج التعليمية.. ما بين النمطية وخطوة نحو التغيير" والذي يحقق في المناهج التعليمية في مناطق حكم النظام السوري وتلك في مناطق الحكم الذاتي أو الحكم المؤقت معتمداً على تحليل محتوى هذه المناهج والزيارات الميدانية لتبيان ما إذا كانت تميز ضدّ المرأة وكيفية ذلك، "نيران صديقة - السوريات ومتلازمة السلاح والعنف" وهو تحقيق ميداني من بلدة معرتحرمة بالريف الجنوبي لمحافظة إدلب يوضح تلك الأثار ويسلط الضوء عليها، و"من رعب الحرب إلى رعب الحدود السورية التركية" والتي تتناول قصص السوريين الذين هربوا من القصف والمعاناة في سوريا قاصدين تركيا حيث أدت عمليات التهريب تلك إلى مقتل 422 سورياً منذ اندلاع الثورة السورية (منهم 76 طفلا دون الثامنة عشر، و38 امرأة).

تستمر المؤسسة في جهودها للأعوام القادمة بالتركيز على سلامة وأمن الصحفيات في القطاع. كما ستولي اهتماماً دائماً لمشاركة المعرفة النسوية وإيجاد سبل عملية لتطبيقها في مجال الإنتاج الإعلامي، دون إغفال أهمية التأكيد على رفع حضور النساء في الإعلام كخبيرات ومصادر للمعلومات في القطاعات المتعددة.

* مسؤولة التواصل في شبكة الصحفيات السوريات

البعد هو اتساع المدى

بشرى البشوات

أحاول أن أنظر إلى هذه المدينة بقلب المحب، لا بعيْنه، بعد ثلاث سنوات من الإقامة الرسميّة هنا. لقد حفظت شوارعها ومناطقها وطرقاتها الأساسيّة وصار بإمكاني أن أستدل على أي مَعلم فيها بسهولة ويسر، لقد تعلمت هنا وللمرة الأولى كيف أستخدم خرائط (GPS) وصرت أعرف قراءة مواعيد الرحلات في كلّ من الحافلات والقطارات.

أنا بعافية قليلاً، بعد ثلاثة أعوام وبُعد، من السكن في مدينة ساحلية، بمحاذاة بحر البلطيق (المسطح المائي الأكبر الذي تمتزج فيه المياه المالحة بالعذبة) ربما هذا يفسر ليّ شعوري المتناقض جهة هذا البحر بين الحب والكره ويخلق عندي بُعداً ما!

أنا بعافية قليلًا.

لم يعن لي البحر شيئاً سوى حزني على أميّ التي لم تره ولو لمرة في حياتها!

أعيش في عاصمة المقاطعة، يبعد بيتي عن مركز المدينة ما يقارب ثلاثة كيلو مترات، في حين كان يبعد بيتي في دمشق عن مركزها ما يقارب عشرة كيلو مترات.. شتان بين البعدين!

الأبعاد: لا أحب أن أدخل في لعبة حسابية، أقنع نفسي بأنني كنت وما زلت أعمل فقط بجزء دماغي الذي لا يحب ولا يجيد الأبعاد والحساب. يقول البروفيسور ستيفن ويلسن من كلية لندن الجامعية لموقع لايف ساينس: "إن عدم تماثل الدماغ أمرٌ جوهريٌ لوظيفة الدماغ السليم"، ويكمل قائلاً: "إن عدم التماثل يسمح لجانبي الدماغ بأن يصبحا متخصصين، مما يزيد من سعة عملياتهما ويمكنهما من تجنب حالات التعارض حيث يحاول كل من جانبي الدماغ أخذ المسؤولية".. أخذ المسؤولية في أي شيء؟

ربما في انتقاء طرفي البعد!

في كلية الآداب في دمشق، تلك الكلية التي دخلتها بسنّ متأخرة، تماماً مثل كل أشيائي المفصلية في الحياة أصلها متعلقة بالقاطرة الأخيرة، لدي الشجاعة للاعتراف بأنني لا أركض كفاية، لأنني قبل ذلك لم أصل ولا إلى أي محطة في الموعد المحدد. أنا مثلاً تأخرت بإكمال دراستي.. تأخرت في بيت أبي، فتأخرت في الحب ثم تأخرت في الزواج.. لكنني بالطبع هرولت بأقصى ما لدي جهة الأمومة.

تأخرت في الخروج من سوريا بعد الثورة لأنني تأخرت في معرفة البعد بين الشك واليقين، أو بين الفراق والحنين. الفراق والحنين يتناسبان طردًا!

ها أنا أعود إلى الرياضيات، في كلية الآداب في دمشق، وفي فترات الاستراحة، ونحن نبدد الوقت الأبله في شرب القهوة، كنا نتبادل الأسئلة: نتحدث عن البيوت، عن الطريق والبعد، كانت أسئلة من ذلك النوع الذي لا حاجة فيه لمران الذاكرة، في ذلك الوقت وتلك السنّ سمعت لأول مرة باحتفال الهالوين، وحتى أبدد سحنة الجهل عن وجهي رحت أضحك ببلاهة على الطرائف التي يلقيها الأصحاب وهم يسردون كيف كانوا يتابعون مجموعة من الصور واحتفالات هذا اليوم. ذلك أيضاً بُعد ما بين الجهل والمعرفة. الهالوين: يحتفل العالم بالهالوين في 16 من تشرين الأول. بعد عام ونصف من وصولي إلى هذه المدينة الساحلية، رنّ جرس البيت، أمام الباب ثلاثة صبية وأمهم بألوان ورسومات وأقنعة وقناديل مضيئة يطرقون بابنا في هذا الشتاء يريدون حلوى احتفالاً بالهالوين!!

عيد القديسين والشهداء والمظلومين، الذي غيّرت طقوسه فيما بعد الثقافة الأمريكية.. فصار عيداً آخر.

البعد الأخر بين ما سمعت وبين ما رأيت.. شتان بين البعدين!

كان من الصعب على الأصدقاء معرفة مكان واسم البلدة التي أسكنها في جنوب دمشق، وكان لزاماً علي أن أربطها بمعلم أكثر شهرة وحضوراً، أقول لهم أسكن بعيدة عن مقام السيدة زينب أقل من كيلو متر واحد.

"ها تسكنين هناك؟"..

"نعم".

"هل صحيح أن المنطقة تعجّ بالعراقيين؟

"نعم تعجّ الآن بالجميع إلا أهلها".. بُعد أخر بين ما كان وما صار إليه!

كنت أهزّ رأسي موافقة، ثم أسترسل بثقة العارف، وثرثرة الجائع للخبر، كان لدي خبريّات حول ذلك. ذلك هو البعد- المسافة بين ما أعرف وما يجهلون!

البعد ثانية..

دمشق الجرداء ومدينتي هذه التي تتقيأ الخضرة بملء فمها، ينال مني رذاذها، أخفي وجهي بذراعي.

كنت أسكن في جنوب دمشق. يوم خرجت منها كنت في الثامنة والثلاثين، ولما وصلت جبل الزاوية في إدلب كنت في نهاية التاسعة والثلاثين.. هذا لا يعني بأنني استغرقت سنة في الطريق، لكنه يعني البُعد بين العزم وبين المسير.

يقاس العمر أيضاً بالأبعاد؛ أبعاده فيما أنفقتها، لم يسألني أحد فيمَ أنفقت سنواتي الأربعين حين دخلت الحد الفاصل بين الحدود النمساوية الألمانية.

الحد الذي عبره هتلر حين لم يكتف بكل أبعاد ألمانيا في العام 1938.

الحد الذي عبره مئات الآلاف ممن خرجوا من سوريا، كل من خرج من سوريا عَرَفَ بُعداً ما؟!

لم أعرف الكثير من المطارات في حياتي؛ المطار الأول الذي عرفته كان مطار دمشق ومنه وصولاً إلى مطار القامشلي، وحين كنت بانتظار ولدي ابن الرابعة والنصف وأخطأت برقم البوابة، كان ذلك في مطار هامبورغ. لا عجب أن يسمّوا المطارات بالموانئ. البحر إذا..!

يقول محمود درويش: "كلنا في البحر ماء".

"كلنا"؟.. من كُلنا؟ هل تحوّل السوريون إلى ماء في بحر إيجه؟

في تقرير عرضته قناة الجزيرة من الشواطئ الليبية عن رجل كانت مهمته الموجعة تنحصر في جمع أحذية الغرقى عن الشاطئ؛ أحذية أولئك الذين عبروا البحر.. بكيت وقتها بشدة.

قال إنه يحفظ هذه المئات بل الألاف من الأحذية ليظلّ هو على الأقل شريكاً بنسبة من الوجع.

لم يكن ما جمعه أزواجاً من الأحذية المتماثلة، فقط فردات منها، بألوان ومقاسات وماركات مختلفة.

تذكرت جيداً حين عبرت جبل الزاوية وفَقَد ولديّ كلّ منهما فردة حذائه، دخلنا تركيا بفردة لكل منهما، دخلنا أول خساراتنا بعرج مع سابق الإصرار.

في كتابها "لماذا لا يتذكر الرجال ويستحيل أن تنسى النساء" تقول الدكتورة ماريان جيه لجاتو: "تستطيع المرأة ببراعة أن تفسّر قدراً هائلاً من تعبيرات الوجه، أكثر مما يستطيع الرجل، مما يعطيها ميزة التعاطف مع مشاعر الأخرين.

وتتمتع المرأة بذاكرة قوية لكل ما تسمعه، ومعنى ذلك أنه يمكنها استرجاع نقاط بعينها دارت في مناقشة نسيها الرجل منذ زمن طويل".

أتذكر جيداً كيف نبشت المجندة الألمانية ثيابي ونبشت ملابس رضيعتي ابنة السنة والنصف حين دخلنا حدودهم في أواخر سنة 2015.

فعلت ذلك بقلب بارد، لأنها تعرف البعد بين الوطن والشتات!

عمل للفنان سمير خليلي

عمل للفنان سمير خليلي